«الشُّكْرُ» مفهوماً أخلاقياً
(فَضاءُ ما قَبْلَ التّصوّف الإسلامي)(*)

أ. د. عيسى علي العاكوب(*)

القَصْدُ العامُّ:

تَقصِدُ هذه الوَرَقةُ إلى الوقوفِ عندَ «الشُّكْرِ» بما هو مفهومٌ أخلاقيٌّ في التّربيةِ الصّوفيّةِ في الإسلام. ومعلومٌ عندَ كثيرٍ أنّ «الشُّكْرَ» عُرِفَ في الحياةِ العربيّةِ قَبْلَ الإسلام، وحَظِي باهتمامٍ كبيرٍ في التّكوينِ السُّلُوكيِّ الإيجابيِّ لِلْأفراد. وقد أبرزَتْهُ الحياةُ العربيّةُ في تَيّارِ المُحاكَمةِ الاجتماعيّةِ العربيّةِ حِينَ جعَلَتْه مُقابِلاً في الدِّلالةِ لِـ«الكُفْر». وتُحاولُ الوَرَقةُ أن تَتَبَّعَ حركةَ هذا المفهومِ في خِضَمِّ التّطوّرِ الرّوحيِّ والعقليِّ والسُّلُوكيّ الذي شَهِدَه العرَبُ منذُ جاهليّتهم الأولى حِينَ كانوا يَفهمونَ معانِيَ الفِكَرِ ويَعيشونَها بِغَيْرِ تنظيرٍ وتفَلْسُفٍ مُدوَّنٍ،

(*) أَصْلُ هذا البَحْثِ وَرَقةٌ مُقدَّمةٌ في النّدوةِ البَحْثيّةِ المغلَقةِ: «المفهوماتُ الأخلاقيّةُ في النُّصوصِ والتُّراث»، التي أقامَها مركزُ دِراساتِ التّشريعِ الإسلاميِّ والأخلاق، العُضْوُ في جامعةِ حَمَد بن خليفة، في الدّوحة - قطر في المدّة: ١-٣ كانون الأوّل ٢٠١٩م. ولِطُولِ البَحْثِ نِسْبيًّا بَدَا لَنا نَشْرُهُ في هذه الدّوريّةِ الكريمةِ مُوَزَّعاً عَلَى عَدَدَيْنِ مُتتابِعَيْنِ بالعنوانِ نَفْسِه، عارِضِينَ في هذا العَدَدِ المسألةَ في فضاءِ ما قَبْلَ التّصوّف، وفي العَدَدِ التّالي المسألةَ في فضاءِ التّصوّف. فاقتضَى الأَمْرُ التّذكيرَ.

(*) عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دِمَشْق، أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٨/ ١/ ٢٠٢٠م.

إلى أن داهَمَهم تَيّارُ الإسلامِ المنـدَفِعُ بقـوّةٍ الـذي حَـرّكَ أَدَواتِ الفَهْـمِ عنـدَهم، وأنهضَ في تكْوينِهم النّفسيِّ والسُّلُوكيّ حسَاسِيّاتٍ مُفْرِطـةً تَجْهَـدُ فـي فَهْـمِ كُـلِّ معنًى الفَهْمَ الدّقيقَ الذي ينبغي عندَهم أن يُطابِقَ تماماً الفِكْـرَ القُرآنـيَّ المكتـوبَ، المُقدَّمَ عَمَليًّا مِن رَسُولٍ يريـدُ لِلْمـؤمنينَ أن يكـونَ فَهمُهـم مباشِـراً عـن خـالِقهم، ومُطابِقـاً تمامـاً لِمُـرادِه مِـنهم؛ حيـثُ كـان القـرآنُ والرَّسُـولُ والتّواصـي بِـالحَقِّ والتّواصي بِالصّبرِ أَدَواتِ تحريضٍ هائل لِإيجـادِ بَشَـرٍ شَـبيهينَ بِالرُّسُـلِ، يَفهمـونَ عن الله بِتلَقِّي النُّورِ مِن المِشكاةِ الإلهيّة بَعْدَ فَتْحِ فَضاءاتِ قُلُوبِهم وعُقُـولهم لكـيلا تبقَى فيها نُقطةٌ لا يَشمَلُها هذا النّورُ. وقد هَيّأتْ حَيـاةُ القلـوبِ بِمَفهومـاتِ القُـرآنِ لِتطوّرٍ كبيرٍ في مفهومِ «الشُّكْر». فبَعْدَ أن كـان قَبْـلَ القُـرآنِ يعنـي الاعتـرافَ بِحَـقِّ المُنعِمِ البشَريّ، صار في تَعـاليمِ الـدّينِ الجديـدِ يعنـي الاعتـرافَ بِفَضْـلِ المُـنْعِمِ الأَوْحَدِ الفَرْدِ الصَّمَدِ. ولَعلَّه مِن هذا الاعتبارِ كانَتْ أُولَى عبـاراتِ القـرآنِ الكـريم بَعْـدَ البَسْـمَلةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحـة: ٢]. ومـا هـذا التّطـوّرُ المفهوميُّ المبكِّرُ جِدًّا إلّا لِأنّ العرَبَ كانوا قَبْـلُ يَـرَونَ مُنعِمـينَ كثيـرينَ، فصـاروا معَ التّعليمِ الجديدِ يَرَون مُنْعِماً واحِـداً، هـو رَبُّهـم، أي: خـالِقُهم ومُـربِّيهم ومُـدَبِّرُ أَمْرِهم، الذي هو وَحْدَه المُؤهَّلُ لِ «الشُّكْرِ»، وهو اللهُ تعالى.

ثمّ بَعْدَ إكمالِ الدِّينِ وارتضاءِ الله سُبْحانَه الإسلامَ دِيناً لِلْبشَـريّةِ، هَيّـأَ العِلْـمُ العَمَليُّ الحادِثُ لِلْأُمّة، الآتي مِن القرآنِ والحديث، المُستعينُ بِحَساسـيّةٍ إيمانيّـةٍ استبدَّتْ بِالنّفُوسِ، لِإدراكِ عُنصُرٍ إيمانيّ قَوِيٍّ جِدًّا في «الشُّكْر».

ثمّ حِينَ كَثُرَ بينَ أفرادِ الأُمّةِ مَن تخطَّوا مرتبةَ الإسلامِ إلى سِـدْرةِ الإحسـانِ، عُدَّ «الشُّكْرُ» بَيْنَ المَقاماتِ الصّوفيّةِ السَّنِيّة، التـي اسـتحقَّتْ أن تُسَـوَّدَ الصُّـحَفُ الكثيرةُ في بَيانِ مَقاصِدِها والتّشقيقِ في تحديدِ عناصِرِها ومكوِّناتها.

وهذه الرِّحْلةُ المُمْتدّةُ التي ارتحلَها مفهومُ «الشُّكْرِ»، التـي أُعْمِلَـتْ فيهـا

منظوراتٌ مختلفةٌ، وخاصِّيّاتُ عبقريّاتٍ بَشَريّةٍ مُتباينـةٍ، وحَساسِـيّاتٌ معرفيّـةٌ متنوِّعةٌ، قصَدَتْ هذه الوَرَقةُ إلى أن تَسْبُرَ أغوارَها، وتتبيّنَ أَسْرارَها، وتكشِـفَ مُكوِّناتِهـا. ويرضَـى الكاتِـبُ الفقيـرُ لِهـذه الوَرَقـةِ بِـأَجْرِ المُجتهِـد، ويَسـأَلُ المُحيطَ بِعِلْمِه سُبْحانَه الإصابةَ في القَوْلِ والعَمَلِ والمُعتقَد!

نِقاطُ المُناقَشةِ:

تَقِفُ المُناقَشةُ في المَحطّاتِ الآتية:

- مَقاصِدُ مُفْرداتِ العُنوان: المفهوم، الأخلاقيّ، التّصوّف، المَنْظُور.
- الشُّكْرُ اللُّغَوِيُّ وحَقيقتُه.
- الشُّكْرُ والمنظوراتُ التي رُئيَ مِنها:
  - المنظورُ العربيُّ قَبْلَ الإسلام.
  - المنظورُ القرآنيُّ والحَديثيُّ.
  - المنظورُ الصُّوفيُّ العِرْفانيّ:
    - الشُّكْرُ في العِباراتِ المُفْردةِ السّائرة.
    - الشُّكْرُ في المُناقَشاتِ التّأصيليّةِ المفصّلة.
- المُحصَّلُ الأَخِيرُ.

- مقاصِدُ مُفْرداتِ العنوان:

- **المفهوم:**

المفهومُ في اللّغةِ اسْمُ مفعـولٍ مِـن «الفَهْـم»، وهـو «هَيْئـةٌ لِلْإنسـانِ بِهـا يتحقّقُ معانِيَ مـا يُحِـسُّ»[(١)]. وفـي القـرآنِ الكـريمِ قَوْلُـهُ تعـالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وذلكَ إمّا بِأن جَعَلَ اللهُ لـه مِـن فَضْـلِ قـوّةِ الفَهْـمِ مـا

(١) الرّاغبُ الأصفهانيُّ، مفرداتُ ألفاظِ القرآن، بتحقيق صفوان داوودي، نَشْر دار القَلَم في دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٦٤٦.

أدركَ به ذلكَ [الحُكْمَ]، وإمّا بِأَن أَلْقَى ذلكَ في رُوعِه، أو بِأن أوحَى إليه وخَصَّه به[٢].

ويُروَى في حادثةٍ مشهورةٍ في تاريخ تلقّي الشّعْرِ العربيِّ أنّ الشّاعِرَ أبا تَمّام، حَبيبَ بنَ أَوْسٍ الطّائيّ، أنشدَ ممدوحَه شيئاً مِن الشِّعْرِ أبهمَ فيه، فقالَ له واحِدٌ مِمّن حَضَروا: لِماذا تقولُ ما لا يُفهَمُ؟- فأجابَه الشّاعِرُ: ولِماذا لا تفهَمُ ما يُقالُ؟[٣]. فالمَفْهومُ هنا هو المُحصَّلُ مِن معنَى الشِّعْر.

ويبدو أنّه انصَرَمَ عهدٌ مَديدٌ مِن الاستعمالِ اللّغويِّ إلى أن صارَتْ كلمةُ «مَفْهُوم» اسْماً لِما يُدْرِكُه المُهتمُّ مِن حقيقةِ الأمْرِ أو الشّيء. وكأنّ كلمةَ «مَفْهُوم» في عَربيّةِ الزّمانِ الأخيرِ الذي نَحْيا فيه بَقِيّةٌ مِن عبارةٍ أطولَ هي: المفهومُ مِن معنَى الأَمْرِ أو الشَّيْءِ عِنْدَ المُنشَغِلِينَ به، الذين يَحصُلونَ مِن الكلمةِ عِنْدَ إطلاقِها عَلَى مستوًى مُعيَّنٍ مِن الإدراك المعرفيِّ لِدِلالَتِها.

ويُقابِلُ مُرادَنا مِن «المَفْهُوم» هنا في الإنكليزيّةِ كلمةُ concept المُستمَدّةُ مِن اللّاتينيّةِ المُتأخِّرةِ بِمعنَى شَيْءٍ مُتصَوَّرٍ a thing conceived، فِكْرةٍ thought. وبَدْءاً مِن عامِ ١٨٣٥م صار المَفْهُومُ في الإنكليزيّةِ فِكْرةً عن شَيْءٍ ما تُشكَّلُ مِن طريقِ الجَمْعِ عقليًّا بَيْنَ جَميعِ خَصائصِه ومُميِّزاته[٤].

وتَبَعاً لِذلكَ، مفهومُ «الشُّكْرِ» في العنوانِ هو فِكْرتُه حِينَ تُطلَقُ الكلمةُ عِنْدَ جماعةٍ تُعنَى بِالمُرادِ مِنها ضَرْباً مِن العِناية.

- **الأخلاقيُّ:**

الأخلاقيُّ في العنوانِ وَصْفٌ منسوبٌ إلى الأخلاق. وهي جَمْعُ خُلُق،

(٢) السّابق، ص٦٤٦.

(٣) ابنُ رَشيق القَيْرَوانيّ، العُمْدة في مَحاسِن الشّعر وآدابه ونَقْده، بتحقيق مُحمّد مُحْيي الدّين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م، ج١ ص١٣٣.

(٤) مُنير البَعْلَبكيّ، المورِدُ الأكبر، نَشْرةُ دار العِلْم للملايين، بيروت، ١٩٦٧م، ص٤٣٧.

وهي الصِّفةُ التي يُخْلَقُ عَلَيْها الإنسانُ. ولَعلَّ ذلكَ عَيْنُ ما عَناهُ الشّاعِرُ العربيُّ بِـ«الخَلِيقة» حِينَ قال:

ومَهْما تَكُنْ عندَ امْرِئٍ مِن خَلِيقةٍ وإنْ خالَها تخفَى عَلَى النّاسِ تُعْلَمِ[٥]

ويرى الرّاغِبُ الأصفهانيُّ أنّ «الخَلْقَ والخُلْقَ في الأَصْلِ واحِدٌ، كالشَّرْبِ والشُّرْبِ، والصَّرْمِ والصُّرْمِ، لكنْ خُصَّ الخَلْقُ بالهَيْئاتِ والأشكالِ والصُّوَرِ المُدْرَكةِ بالبَصَر، وخُصَّ الخُلُقُ بالقُوى والسَّجايا المُدْرَكةِ بالبَصيرة»[٦].

ووَصْفُ مَفْهُومِ الشُّكْرِ بأنّه أخلاقيٌّ يعني نسبتَه إلى طبائعِ البَشَرِ وجِبلّاتِهم وصِفاتِهم الخُلُقيّةِ الفِطْريّةِ التي يُولَدون علَيها. ويرى بَعضُهم أنّ طبيعةَ الفِكْرِ القرآنيّ تُحتِّمُ علَيْنا «أن نَميزَ بَيْنَ ثلاثِ طَبقاتٍ لِلْخِطابِ الأخلاقيّ. فهناكَ، بتعبيرٍ آخَرَ، ثلاثةُ أصنافٍ مختلفةٍ لِلْمَفْهُوماتِ الأخلاقيّةِ في القرآن: تِلْكَ التي تُشيرُ إلى الصِّفاتِ الأخلاقيّةِ لِلْحَقِّ تعالَى وتَصِفُها؛ وتِلْكَ التي تَصِفُ الجوانبَ المختلفةَ لِلْمَوْقِفِ الأَصْليِّ لِلْإنسانِ مِن الله، خالِقِه؛ وتِلْكَ التي تُشيرُ إلى مَبادئ السُّلُوكِ وقواعِدِه التي تُنظِّمُ العلاقاتِ الأخلاقيّةَ بَيْنَ الأفرادِ الذين ينتمونَ إلى الجماعةِ الدّينيّةِ لِلْإسلامِ ويعيشونَ في إطارِها»[٧].

وإذ تُعنَى الوَرَقةُ بِـ«الشُّكْرِ مفهوماً أخلاقيًّا» تَعْنِي بذلكَ الوقوفَ عِنْدَ هذا المَفْهُومِ مِن حيثُ هو ذو طبيعةٍ أخلاقيّة. وقد جاء في الأَثَرِ: «تخلَّقُوا

---

(٥) زُهَير بن أبي سُلْمَى، ديوان شعره، بتحقيق فخر الدّين قباوة، المكتبة العربيّة، حلب، ١٩٧٠م، ص٢٢.

(٦) مفردات، سابق، ص٢٩٧.

(٧) Izutsu, Toshihiko. Ethico- Religious Concepts in the Qur'an. McGil University Press, Montreal, Canada, 1966, p. 17.

ويمكنُ مُراجعةُ التّرجمة العربيّة لِهذا الكتاب بعنوان: المفهوماتُ الأخلاقيّةُ الدّينيّةُ في القرآن، بعناية كاتب الوَرَقة، نَشْر دار الملتقى في حلب، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٦٦.

بِأخلاقِ الرّحمن»[٨]، و«عَيْنُ حقيقة أنّ اللهَ، وَفْقاً لِلتّصوُّرِ القُرآني، ذُو صِفاتٍ أخلاقيّةٍ ويتعامَلُ معَ الإنسانِ بِطَريقةٍ أخلاقيّةٍ تحمِلُ الدِّلالةَ الخطيرةَ المُتمثِّلةَ في أنّ الإنسانَ أيضاً يُتوقَّعُ أن يَستجيبَ بِطَريقةٍ أخلاقيّة. واستجابةُ الإنسانِ الأخلاقيّةُ لِأفعالِ الله تعني في النَّظْرة القرآنيّةِ الدِّينَ نفسَه. إنّها، بِتعبيرٍ آخَرَ، في الوقتِ نفسِه أخلاقٌ ودين»[٩].

- **التّصوّف:**

قِيلَ: إنّ أقدَمَ كتابٍ ورَدَتْ فيه كلمةُ «الصُّوفيّة» بِمعنًى خاصٍّ هو كتابُ «البيانِ والتّبيين» لِلْجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، حَيْثُ يقولُ: «الصُّوفيّةُ مِن النُّسّاك»، وأوّلَ شَخْصٍ سُمِّيَ «صُوفيًّا» هو أبو هاشِمٍ الصُّوفيُّ الكوفيُّ (ت ١٥٠هـ). ويَقيناً وُجِدَ قَبْلَ أبي هاشِمٍ زُهّادٌ ذَوُو وَرَعٍ وتوكُّلٍ ومحبّةٍ.. ويُعَدُّ الحَسَنُ البَصْريُّ (ت ١١٠هـ)، الذي وَدَّعَ الدّنيا وسِنُّهُ تدنو مِن الثّمانينَ أَوّلَ مَن شَرَحَ المَقاماتِ العالِيةَ لِلصُّوفيّةِ في كتابِهِ «الرّعايةُ لِحُقوقِ الله». ولِهذا السَّبَبِ يكونُ هذا الكتابُ أوّلَ كتابٍ في التّصوّف. واعتماداً عَلَى ذلكَ يمكنُ القولُ: إنَّهُ، قَبْلَ الجاحظِ، كان قد أشارَ إلى تعبيرِ «الصّوفيّ» بمعنًى عامٍّ، حَيْثُ قالَ: «رأيتُ صُوفِيًّا في الطَّوافِ فأعطيتُه شيئاً فلم يأخُذْ، وقالَ: معي أربعةُ دَوانيقَ، فيكفيني ما معي»[١٠].

وقد تعدّدَتْ تعريفاتُ التّصوّفِ، وتَبايَنَتْ وِجهاتُ النَّظَرِ إليه عَلَى نحوٍ تحتاجُ الإحاطةُ بها إلى مجالٍ أوسعَ مِن هذا الذي نحنُ فيه. ورُبّما يكونُ مُفيداً في مَسْألَتِنا هنا أن نقولَ: إنّ التّصوّفَ هو التّطبيقُ العَمَليُّ الكامِلُ لِمُفادِ

(٨) الفخر الرّازي، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج٧ ص٥٨.

(٩) Ethico- Religious Cancepts, p. 17. – والتّرجمة العربيّة، ص٦٦-٦٧.

(١٠) مِن أوّلِ الفقرة إلى هنا مُستمَدٌّ ترجمةً عن الفارسيّة مِن مهين پناهى: أخلاقِ عارفان، أخلاق المُتصوِّفة مِن خلالِ المتون العِرْفانيّة، منذ البَدْء إلى أوائل القرن السّابع الهجريّ، انتشاراتِ روزنه، طهران، ١٣٧٨هـ.ش-١٩٩٩م، س ع.

العبارةِ القرآنيّة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. فَمَن اجتهَدَ لكي يتحقّقَ بِمَطالِبِ هذه العبارةِ وجَعَلَ ذلكَ هَمَّهُ فقد انتمَى إلى التّصوّفِ بمعنًى مِن المعاني. ويدنو مِن هذا الذي قُلْناه ما يُقالُ مِن أنّ ذا النُّونِ المِصْريَّ سُئِلَ عن الصُّوفيّةِ فقالَ: «هم قَوْمٌ آثَرُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فآثَرَهم اللهُ عَزّ وجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيءٍ»(١١). ويَمِيلُ المُتأمِّلُ في نَشْأةِ الصّوفيّةِ إلى قَبولِ قَوْلِ أبي القاسِمِ القُشَيريّ (ت ٤٦٥هـ): «اعْلَمُوا رَحِمكُم اللهُ تعالَى أنّ المُسْلِمِينَ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ لم يَتسمَّ أَفاضِلُهم في عَصْرِهم بِتَسْمِيةٍ عَلَمٍ سِوَى صُحْبةِ رَسُولِ الله ﷺ، إذ لا فَضيلةَ فَوْقَها، فَقِيلَ لهم: الصَّحابة. ولَمّا أدركَهم أهلُ العَصْرِ الثَّاني سُمِّيَ مَن صَحِبَ الصَّحابةَ التّابعينَ، ورَأَوا ذلكَ أَشْرفَ سِمةٍ. ثمّ قِيلَ لِمَن بَعْدَهم: «أتباع التّابعينَ». ثمّ اختلفَ النّاسُ وتَباينَتِ المَراتِبُ، فقِيلَ لِخَواصِّ النّاسِ مِمّن لهم شِدّةُ عِنايةٍ بِأمْرِ الدِّين: الزُّهّاد والعُبّاد. ثمّ ظهَرَتِ البِدَعُ وحَصَلَ التّداعي بَيْنَ الفِرَق، فكُلُّ فَريقٍ ادّعَوا أنّ فِيهم زُهّاداً، فانفرَدَ خَواصُّ أَهْلِ السُّنّةِ المُراعونَ أَنفاسَهم معَ اللهِ تعالَى، الحافظونَ قُلُوبَهم عن طَوارِقِ الغَفْلةِ بِاسْمِ «التّصَوّف». واشتهَرَ هذا الاسْمُ لِهؤلاءِ الأكابِرِ قَبْلَ المِئَتَيْنِ مِن الهِجرة»(١٢).

ونُريدُ بِـ«التّصوّفِ الإسلاميِّ» في العُنوانِ ما كُتِبَ في شأنِ التّصوّفِ في الأدوارِ المختلفة.

- **المنظور:**

المُرادُ بِالمَنْظُورِ، الذي جاء جَمْعُه في العنوان «المَنْظُورات»، ذلكَ

(١١) أبو القاسم عبدالكريم القُشَيريّ، الرّسالة القُشَيريّة في عِلْمِ التّصوّف، نَشْرةُ دار الكتاب العربيّ في بيروت، ص١٢٧.

(١٢) السّابق، ص٧-٨.

الذي يَراهُ العَقْلُ مِن الفِكْرةِ في اللّحظةِ التي يتحدّثُ فيها الإنسانُ عن هذه الفِكْرة، أو يُرادُ مِنه حَدُّها أو تَعْرِيفُها. ذلكَ لِأنّ العقولَ المُفكِّرةَ تعجِزُ غالباً عن الإحاطةِ بِمُحدِّداتِ الفِكْرةِ دَفْعةً واحدة. ويُقابِلُ مُرادَنا بِ«المَنْظُورِ» هنا اللّفظةُ الإنكليزيّةُ perspective، التي تَعْنِي كما قَدَّمْنا: مظهَرَ الموضوعِ كما يَتبدَّى لِلْعَقْلِ مِن زاويةٍ مُعيّنة(١٣).

وقَصْدُنا الدّقيقُ مِن استعمالِ تعبيرِ «المَنْظُوراتِ» في عُنوانِ الوَرَقة: وجهاتُ النَّظَرِ إلى مفهومِ «الشُّكْرِ» عِنْدَ مَن عَرَضوا له؛ فإنّ لِكُلٍّ مِنهم وِجْهةً هو مُوَلِّيها، فهذا يرى الموضوعَ مِن منظورٍ أخلاقيٍّ، وذاك يراهُ مِن منظورٍ تاريخيّ..

- الشُّكْرُ اللُّغَوِيُّ وحَقيقتُه:

الشِّينُ والكافُ والرّاءُ أصولٌ أربعةٌ مُتباينةٌ، - أوّلُها وهو الذي يعنينا هنا - الشُّكْرُ بِمعنَى الثَّناءِ عَلَى الإنسانِ بِمعروفٍ يُولِيكَهُ(١٤). وتُشيرُ هذه الدِّلالةُ الأصليّةُ لِلشُّكْرِ إلى فَرْطِ حَساسيّةٍ في الاستجابةِ لِلْمؤثِّرِ الإيجابيِّ، فإنّه «يُقالُ: إنّ حَقيقةَ **الشُّكْرِ الرِّضا بِاليَسيرِ**. يقولونَ: فَرَسٌ شَكُورٌ: إذا كَفاهُ لِسمَنِه العَلَفُ القليلُ؛ ويُنشِدونَ قولَ الأعشى:

ولا بُدَّ مِن غَزْوةٍ في المَصِيـ ـفِ رَهْبٍ تُكِلُّ الوَقاحَ الشَّكُورا

ويُقالُ في المَثَل: «أَشْكَرُ مِن بَرْوقةٍ، وذلكَ أَنّها تخضَرُّ مِن الغَيم، مِن غَيْرِ مطَر»(١٥). وتقولُ العربُ أيضاً: «أَشْكَرُ مِن كَلْبٍ».

وفي هذا المعنَى يَرْوِي المَيْدانيُّ (ت ٥١٨هـ) هذه الحِكايةَ: «قالَ مُحمَّدُ بنُ

(١٣) المورد الأكبر، سابق، ص١٣٩٥.

(١٤) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة، بتَحقيق وضَبْط عبدالسّلام مُحمَّد هارون، نَشْرةُ اتّحادِ الكُتّابِ العربِ في دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ج٣ ص٢٠٧.

(١٥) السّابق ج٣ ص٢٠٧-٢٠٨.

حَرْبٍ: دَخَلْتُ عَلَى العَتّابيّ بِالمُخرَّمِ[١٦] فرأيتُه عَلَى حَصيرٍ وبَيْنَ يَدَيْهِ شَرابٌ في إناءٍ، وكَلْبٌ رابِضٌ بِالفِناءِ، يَشْرَبُ كأساً ويُولِغُهُ أخرى. قالَ فقُلْتُ لـه: ما أردْتَ بِما اختَرْتَ؟- فقالَ: اسْمَعْ، إنّه يكُفُّ عَنِّي أَذاهُ ويَكْفِيني أذَى سِواهُ، ويَشكُرُ قَليلي ويَحفظُ مَبيتي ومَقيلي، فهو مِن بَيْنِ الحَيَوانِ خَليلي. قالَ ابنُ حَرْبٍ: فتمنَّيْتُ، واللهِ، أن أكونَ كَلْباً له لِأَحوزَ هذا النَّعْتَ مِنه»[١٧].

ويُشيرُ هذا الذي أَتَينا به إلى حَساسِيّةٍ مُفْرِطةٍ عِنْدَ العربِ في نَظْرتِهم إلى أشياءِ العالَم، وتَعرُّفِ طَبائعها، ويُشيرُ أيضاً إلى تَصوُّرِهم هذه الخَلّةَ أَمْراً جِبلِّيًّا خِلْقيًّا تَتفاوتُ حُظوظُ الكائناتِ مِنه قُوّةً وضَعْفاً. فالفَرَسُ الشَّكُورُ عِنْدَهم الذي يُسْمِنُه القَليلُ مِن العَلَف، وليس الأَفْراسُ جَميعاً كذلكَ. والبَرْوقةُ مِن الشَّجَرِ مَضْرِبُ المَثَلِ في الشُّكْرِ؛ لِأَنّها تخضَرُّ بِما هو أقَلُّ كثيراً مِن الماء، وهو السَّحابُ أو الغَيْمُ، وليس الشّجَرُ كُلُّه كذلكَ. والكَلْبُ مِن الكِلابِ مَضْرِبُ المَثَلِ في الشُّكْرِ؛ لِأنّه يشكُرُ القليلَ، وليس الكِلابُ جميعاً كذلكَ. ولَعلَّنا نَظَلُّ نَضَعُ في الحِسابِ عُنصُرَ فَرْطِ الحَساسيّةِ في الشُّكْرِ عِنْدَ مُناقَشتِنا الدِّلالةَ الاصطلاحيّةَ لِلشُّكْرِ حِينَ يُقالُ في الإنسان. وعن هذه الحَساسيّةِ المُفْرِطةِ في مفهومِ الشُّكْرِ يُحدِّثُنا مَن يقولُ:

أَحْسِنْ إلى النّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمُ فطالَما استَعْبدَ الإنسانَ إحسانُ[١٨]

وعن تَبايُنِها في الأَفْرادِ يقولُ لَنا الآخَرُ:

---

(١٦) يُريدُ الشّاعِرَ العَبّاسيَّ كُلْثُومَ بنَ عَمْرو (ت ٢٠٨هـ)، والمُخَرَّمُ موضعٌ في بغداد، ويُنظَرُ في شأنِه: ياقوت - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج٥ ص٧١.

(١٧) المَيْدانيّ، مَجْمَعُ الأمثال، نَشْرة مطبعة عبدالرّحمن محمّد، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ج١ ص٤٠٠.

(١٨) أبو الفتح البُسْتيّ، ديوانُ شِعْرِه، بتحقيق دُرِّية الخطيب ولطفي الصّقّال، نَشْرةُ مجمع اللّغة العربيّة في دمشق، ١٩٨٩م، ص١٨٧.

إذا أنـتَ أكرَمْـتَ الكـريمَ مَلَكتَـهُ وإن أنتَ أكرَمْتَ اللّئيمَ تَمـرَّدا[١٩]

فأساسُ الشُّكْرِ في أَصْـلِ الاسـتعمالِ العربـيّ علاقـةٌ بَـيْنَ شَـيئَيْنِ: مُـؤثِّرٍ ومُتأثِّر. ويكونُ فِعْلُ المُؤثِّرِ مُناسِباً لِطبيعةِ المُتأثِّر، أو إيجابيًّا فـي لُغـةِ زَمانِنـا. ويبدُو مِمّا تقدّمَ أنّ المُواضَعةَ اللّغويّةَ فـي تَسْـمِيةِ فِعْـلٍ مـا بِـ«الشُّـكْرِ» بـدأَتْ وَصْفاً لِعَلاقاتٍ أُدْرِكَتْ أوّلاً بينَ أَشْياءِ الوجـودِ الجامـدةِ والحَيّـةِ، وانصَـرَفَ اسْمُ «الشُّكْرِ» لِيُطلَقَ عَلَى «استجابةٍ» في المُتـأثِّرِ لِفِعْـلِ المُـؤثِّرِ. ويُلْحَـظُ فـي هذه الاستجابةِ أَمْران: أنّ مِقْدارَ المُـؤَثِّرِ يَسـيرٌ زَهيـدٌ، وأنّ المتـأثِّرَ يَسـتجيبُ بِقُوّةٍ لِهذا المُؤثِّر اليَسِير. إضافةً إلى أنّ التّعبيرَ عن الشُّكْرِ ما كانَ فـي الأَصْـلِ كَلاماً يُقالُ بل فِعْـلَ اسـتجابةٍ. وهـذا يـذكِّرُنا بِدِلالـةِ الحـالِ المُقابلـةِ لِدِلالـةِ المَقال، أو بِدِلالةِ الاعتبار. ومِن دِلالةِ الحالِ عَلَى «الشُّكْرِ» بِالمعنَى اللّغويِّ، أي: الثَّناء، ما يُقالُ مِن أنّ نُصَيبَ بنَ رَباح، الشّاعِرَ الأُمَـويَّ، كـان فـي صَـدَدِ مَدْحِ سُلَيمانَ بنِ عَبْدِالمَلِك، فذكَرَ أنّه لَقِـيَ جَماعـةً كـانوا قـد زارُوا سُـلَيْمانَ الذي كان إذ ذاكَ وَلِيًّا لِلْعَهْـد، فأَحْسَـنَ وِفـادتَهم، ثـمّ صَـدَرُوا عنـه مُحمَّلـينَ بِالأُعْطِيَّاتِ والهَدَايا، ثمّ استوقفَهُم الشّاعِرُ في الطَّريق، فسأَلَهم عن سُـلَيمانَ، فعاجُوا عن الطّريق، وأثنَوا عَلَى سُـلَيمانَ بِمـا هـو أَهْلُـه مِـن الكَـرَمِ والبَـذْل، ويقولُ: حتّى لو أَنَّهم سَكَتُوا وامتنَعُوا عن الشُّكْرِ لَشَـكَرَتْهُ الحَقائـبُ المُمْتلئـةُ التي حَمّلَهُم إيّاها سُـلَيمانُ. فهـذا القَبِيـلُ مِـن الشُّـكْرِ يكـونُ بِدِلالـةِ الحـالِ، وذلكَ حَيْثُ يقولُ نُصَيب:

أَقـولُ لِرَكْـبٍ صـادِرينَ لَقيـتُهُمْ قَفا ذاتِ أَوْشـالٍ ومَـوْلاكَ قـارِبُ:
قِفُوا خَبِّرُونـي عـن سُـلَيمانَ إنّنـي لِمَعْروفِـهِ مِـن أَهْـلِ وَدّانَ طالِـبُ

(١٩) المُتنبّي، شرحُ ديوانِ شِعْرِه، بعناية عبدالرّحمن البرقوقي، دار الكتـاب العربـي، بيـروت، ١٩٨٦م، ج٢ ص١١.

فعـاجُوا فـأَثْنَوا بِالـذي أنـتَ أَهْلُـهُ ولو سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقائِبُ[٢٠]

وقد ظَهَـرَتْ لَنـا دِلالـةُ الحـالِ عَلَـى الشُّـكْرِ قَبْـلُ، فـي حَـديثِ البَوْرَقـةِ وحَدِيثِ الكَلْب. ولا نَمتَلِكُ أَدَواتِ الاستيقانِ مِن سَبْقِ هذا النّوعِ مِن الدِّلالةِ عَلَى الشُّكْرِ، لِنَوْعِ دِلالةِ المَقالِ عَلَيه، في الاستعمالِ اللُّغَويِّ العربيّ.

وجُمْلةُ القَوْلِ في الدِّلالةِ اللُّغَويّـةِ الأَصْـليّةِ لِـ «الشُّـكْرِ» أنّـه الرِّضـا بِاليَسـير، لكنّ هذه الدِّلالةَ تطوّرَتْ شَيْئاً فشَيْئاً إلى أن صارَ «الشُّـكْرُ الثَّنـاءَ عَلَـى المُحْسِـنِ بما أَوْلاكَهُ مِن المعروف»[٢١]، وقِيـلَ: «الشُّـكْرُ اللُّغَـوِيُّ هـو الوَصْـفُ بِالجَميـلِ عَلَى جِهةِ التّعظيمِ والتَّبْجيلِ عَلَى النِّعمةِ مِن اللِّسانِ والجَنانِ والأركان»[٢٢].

- الشُّكْرُ والمنظوراتُ التي رُئِيَ مِنها:

استلزَمَتْ نِسْبيّةُ المَعْرفةِ البَشَريّةِ وعَجْـزُ الإنسـانِ عـن الإحاطـةِ بِجُمْلـةِ عناصِرِ الفِكْرةِ الواحـدة دَفْعـةً واحـدةً وتَعـدُّدُ وِجهـاتِ النَّظَـرِ إلـى المَفْهُـوم الواحِدِ، أن تختلفَ مُراداتُ الأَشْخاصِ مِن المَفْهُوماتِ مَعَ مـا يُحْدِثُـه تقـدُّمُ الزّمـانِ مِـن إيجـادِ اهتمامـاتٍ جديـدة وفُهـوم حادِثـةٍ. ولِأنَّ المَعـانِيَ كثيـرةٌ وأسماءَ المعاني، أو الألفاظَ، قليلةٌ تُضطَرُّ اللُّغةُ إلى استعمالِ الاسْـمِ الواحِـدِ في مُسَمَّياتٍ كثيرة، بل يَتقدَّمُ أَمْرُ الاستعمالِ اللّغـويّ إلـى دائـرةِ الاسـتعمالِ الاصطلاحيّ، حَيْثُ تختَلِفُ دِلالةُ المُفْردةِ الواحِدة. والاصطلاحُ «عبارةٌ عن اتّفاقِ قومٍ عَلَـى تَسْـميةِ الشَّـيْءِ بِاسْـمٍ مـا، يُنقَـلُ عـن موضـوعِه الأَوّل»[٢٣].

(٢٠) ابن قُتَيبة، الشِّعْرُ والشُّعَراء، بتحقيق م. ج. دي غويه، نَشْرةُ مطبعة بريـل، ليـدن، ١٩٠٢م، ص٢٤٣. والقارِبُ: الطّالِبُ لِلْماءِ لَيْلاً.

(٢١) الجَوْهَريُّ، تجديد صِحاح العلّامة الجَوْهَري، إعداد وتَصْـنيف نـديم مَرْعَشْـلي وأُسـامة مَرْعَشْلي، دار الحضارة العربيّة، بيروت، ١٩٧٤م، مادّة «الشُّكْر».

(٢٢) الشَّريفُ الجُرْجانيُّ، كتابُ التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٣٣.

(٢٣) السّابق، ص٣٨.

ويُسَمِّيهِ بَعضُهم «العُرْفَ الخاصَّ»[٢٤].

وقد خَضَعَ مفهومُ «الشُّكْرِ» لِضَروراتِ الاستعمالِ الاصطلاحيِّ بِسَببِ تعدُّدِ الفُهومِ واتّساعِ المَعارِفِ وتنوّعِ الحَساسِيّاتِ الإدراكيّةِ عندَ مُستعمِلي اللّغةِ العربيّة. ويبدو أنّ الإسلامَ بِمَصادِرِه الأساسيّة، وتَنوّعِ المُؤمنينَ به في أَعْراقِهم وعُقُولِهم وانشِغالِهم بإصلاحِ دَخائِلِهم، إضافةً إلى عوامِلَ أُخَر كثيرةٍ، هَيَّأَ لِتوسُّعٍ كبيرٍ في الدِّلالةِ الاصطلاحيّةِ لِ «الشُّكْر».

وسَنقِفُ فيما سَيأتي عندَ ثلاثةِ منظوراتٍ تاريخيّةٍ مُتتابعةٍ إلى «الشُّكْر»، وقد أَسْمَينا كُلًّا مِنها منظوراً ابتغاءَ التّأمُّلِ والدَّرْسِ، معَ أنّ كُلًّا مِنها ينطوي عَلَى منظوراتٍ داخليّةٍ يؤسِّسُ مجموعُها منظورَ الجَماعةِ الكبيرة.

- **المنظورُ العربيُّ قَبْلَ الإسلامِ لِمَفْهومِ «الشُّكْر»:**

يَخضَعُ نُشوءُ القِيَمِ الإيجابيّةِ والسَّلْبيّةِ عندَ جَماعةٍ مِن الجَماعاتِ أو أُمّةٍ مِن الأُمَم لِعَوامِلَ كثيرةٍ مُتداخِلةٍ نامِيةٍ بِتقدُّمِ العَهْد. وقد تستمرُّ قِيمةٌ مِن القِيَم عَلَى حالةٍ أقربَ إلى الثَّباتِ والسُّكونِ زَمَناً طويلاً، ثمّ ينبثِقُ عامِلٌ مِن العوامِلِ، داخليٌّ أو خارجيٌّ، يُحْدِثُ هِزّةً كبيرةً في طَبيعةِ هذه القِيمةِ، وقد يكونُ سَبَباً لِاجتثاثِها مِن الأساس.

ولِطَبيعةِ الحياةِ التي يَحْياها النّاسُ تأثيرٌ في نَشْأةِ القِيمةِ وفي المُحافَظةِ عَلَيها في بيئةٍ مِن البيئاتِ. وكُلّما اتّصَلَتِ القِيمةُ الأخلاقيّةُ بِالمَصيرِ ازدادَ الحِفاظُ عَلَيها والتّغنّي بِها، كما هي حالُ قِيمَتَي الكَرَمِ والشّجاعةِ عندَ عَرَبِ الجَزيرةِ في عَصْرِ ما قَبْلَ الإسلام. فقد دارَ مُعظَمُ الفَخْرِ والمَدْحِ في شِعْرِ العَرَبِ في الجاهليّةِ حولَ هاتَيْنِ الخَلّتَيْنِ؛ لِاتّصالِهما كِلْتَيْهما بِالبقاءِ

(٢٤) مُحمَّد علي التّهانويّ، كشّافُ اصطلاحاتِ الفُنون والعلوم، بِعناية رفيق العجم وآخَرين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢١٣.

والاستمرار. ويَنطبِقُ مُعظَمُ هذا الذي قُلْناه عَلَى قِيمةِ «الشُّكْرِ» في الحَياةِ العربيّةِ قَبْلَ الإسلام. ورُبَّما يكونُ «العُدْمُ»، أو عَدَمُ الامتلاكِ، عامِلاً غايةً في صِياغةِ مفهوم الشُّكْرِ عندَ هذه الجماعةِ البَشَريّة؛ فإنّ صُعوبةَ الحُصُولِ عَلَى أسبابِ العَيْشِ في هذه البيئةِ أكثَرَتْ مِن المُعْطِي والآخِذِ، وأقامَتْ وَزْناً كبيراً وتقديراً اجتماعيًّا عالياً لِلْيَدِ العُلْيا التي تُعطِي؛ وكان عادِيًّا في ذلكَ المُجْتمَعِ أن يُعابَ كثيراً مَن يكونُ ذا فَضْلٍ فيبخَلُ بِفَضْلِه:

ومَن يَكُ ذا فَضْلٍ فيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتغنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ[٢٥]

ويَبْدُو أنّ «الشُّكْرَ»، بِمعنَى الثّناءِ عَلَى الإنسانِ بِمَعْروفٍ يُولِيكَهُ، قَد نَما وَفْقَ هذه المُعادَلَةِ في ذلك العَصْر: لا بُدَّ لِذي الفَضْلِ أن يَبْذُلَ، ولا بُدّ لِمَن يتلقَّى الفَضْلَ أن يَشْكُرَ. ووَفْقاً لِهذا المبْدَأ نفهَمُ قولَ القائل:

ومَن يَجْعَلِ المعروفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ، ومَن لا يتّقِ الشَّتْمَ يُشتَمِ[٢٦]

ونفهَمُ مَدْلولَ بَيْتِ عامِرٍ العَدْوانيّ يَمْدَحُ أحَدَ المُلوك:

شَكَرْتُ لَهُمْ آلاءَهُمْ وبَلاءَهم وما ضاعَ معروفٌ يُكافِئُهُ شُكْرُ[٢٧]

ونَفْهَمُ جيِّداً اعتذارَ النّابغةِ الذُّبْيانيِّ لِلنُّعمانِ حِينَ فارقَه ومَدَحَ خُصومَهُ الغَساسِنةَ:

ولكنّني كُنْتُ امْرَأً لِيَ جانِبٌ مِن الأَرْضِ فيه مُسْتَمازٌ ومَذْهَبُ
مُلُوكٌ وإخوانٌ إذا ما لَقِيتُهمْ أُحَكِّمُ في أمْوالِهِمْ وأُقَرَّبُ
كفِعْلِكَ في قَوْمٍ أَراكَ اصْطَنَعْتَهُمْ ولَمْ تَرَهُمْ في شُكْرِ ذلكَ أذنَبُوا

(٢٥) ديوانُ شِعْر زُهَير، سابق، ص٢٢.

(٢٦) السّابق، ص٢٢.

(٢٧) مُحمَّدُ بنُ إبراهيمَ الوَطْواط، غُرَرُ الخصائصِ الواضحة، بِعناية إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٣٢٢.

يقولُ: «اجْعَلْني كقَومٍ صارُوا إِلَيْكَ وكانوا مَعَ غَيْرِكَ، فاصْطَنَعْتَهم وأَحسَنْتَ إِلَيهم ولم ترَهُم مُذْنِبينَ إذ فارقُوا مَن كانوا مَعَه، يقولُ: فأَنا مِثْلُهم، صِرْتُ عَنْكَ إلى غَيْرِكَ فاصْطَنَعَ إِلَيَّ، فلا تَرَني مُذْنِباً، إِذْ لم تَرَ أولئكَ مُذنِبينَ»[٢٨].

ومِثْلَما كانَ الآخِذُونَ ينتظِرونَ بَذْلَ الباذِلينَ، كان الباذلونَ ينتظِرونَ شُكْرَ الآخِذينَ، ويَذُمّونَ مَن لا يَشْكُرونَ الذينَ أَحْسَنُوا إِلَيهم. ووَفْقاً لِهذا العُنْصُرِ في تركيبِ مفهومِ «الشُّكْر» نَفْهَمُ قولَ العربيِّ الجاهِليِّ القائلِ:

أَلَمّا كَشَفْنا لَأُمةَ الذُّلِّ عنكُمُ تَجرّدتَ لا بِرٌّ جَميلٌ ولا شُكْرُ؟[٢٩]

وقَوْلَ الآخَرِ:

وما عِنْدَها لِلْمُسْتَهامِ فُؤادُه بِها، إِنْ أَلَمَّتْ، مِن جَزاءٍ ومِن شُكْرِ[٣٠]

ونَفْهَمُ أيضاً قَوْلَ الآخَرِ:

أَطْلَقْتُ مِن شَيْبانَ سَبْعِينَ عانِياً فآبُوا جميعاً كُلُّهُمْ لَيسَ يَشْكُرُ

فلا شُكْرَكُمْ أَبْغي إذا كُنْتُ مُنْعِماً ولا وُدَّكُمْ في آخِرِ الدَّهْرِ أُضْمِرُ[٣١]

ولِثِقَلِ وَزْنِ «الشُّكْرِ» في مِيزانِ القِيَمِ الاجتماعيّةِ الأخلاقيّةِ الجاهِليّ، تَجِدُ بَيْنَ الباذِلينَ الجاهِلِيِّينَ مَن يَطِيبُ نَفْساً بِشُكْرِ الآخَرين صَنائعَه؛ حتّى حاتِمٌ الطّائيُّ، مِثالُ الكَرَمِ عندَ أواخِرِ الجاهِلِيّينَ، يقولُ لِزَوْجِه:

وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أنّ حاتِماً أرادَ ثَراءَ المالِ كانَ لَهُ وَفْرُ

---

(٢٨) ابن قتيبة، الشِّعْر والشُّعَراء، سابق، ص٨٠-٨١.

(٢٩) الحُصَينُ بنُ الحِمام المُرّيّ، سِيرتُه وشِعْرُه، بتحقيق شريف علاونة، دار المناهج، عَمّان، ٢٠٠٢م، ص٧٧.

(٣٠) هُدْبةُ بنُ الخَشْرَم العُذْريّ، ديوانُ شِعْرِه، بتحقيق يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، ١٩٨٦م، ص١٣٣.

(٣١) أبو عبيدة معمر بن المثنّى، كتاب النّقائض، بعناية محمّد أحمد عبدالعزيز سالم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج١ ص١٧٢-١٧٣. وقد اختُلفَ في شأن القائل.

أَمَــاوِيَّ، إنّ المــالَ مــالٌ بَذَلْتُــهُ فأوّلُــهُ شُــكْرٌ وآخِــرُهُ ذِكْــرُ[٣٢]

بل مَضَى عَمْرُو بنُ كُلثُومٍ إلى أبعدَ مِن ذلكَ حِينَ انبَرَى يُعدِّدُ الأقوامَ الذينَ شَكَروا صَنائعَ قَوْمِه:

أَلَــمْ تشــكُرْ لَنــا أَبْنــاءُ تَــيْمٍ وإِخْوَتُهــا اللَّهــازِمُ والقُعــورُ[٣٣]

عَلَى هذا النَّحْوِ أَوْجَدَ التّفكيرُ القِيميُّ العَرَبيُّ الجاهِليُّ مُعادِلاً نَفيساً لِصَنائعِ المعروف، هو «الشُّكْرُ»، أي: ذِكْرُ إحسانِ الآخَرِ باللِّسان. وقد رَأَينا قَبْلُ صُوَراً لَهُ بِلِسانِ الحالِ، أو الهيئةِ المُشاهَدة. ورُبَّما يُنبِئُ هذا عن تَطَوُّرٍ في صُورةِ «الشُّكْر»، مِن شُكْرٍ بِلِسانِ الحالِ إلى آخَرَ بِلِسانِ المَقال!

وقد زادَ وُضوحَ مفهومِ «الشُّكْرِ» الجاهِليِّ، الذي هو نَوْعٌ مِن الإظهارِ والكَشْفِ لِلْفَضْلِ، ظُهورُ المفهومِ المُناقِضِ له، وهو «الكُفْرُ»، بمعنَى سَتْرِ الفَضْلِ وإخفائه؛ اعتماداً عَلَى المبدَأ المُتعالَم: وبِضِدِّها تَتميّزُ الأشياءُ. ويتراءى هذا واضِحاً في قولِ العَجْلانِ بنِ خُلَيْد:

فإِنْ تَشْكُروني تَشْكُرُوا لِيَ نِعْمةً وإِنْ تكفُروني لا أُكلِّفْكُمُ شُكْري[٣٤]

وفي قَوْلِ الشّاعِرِ الصُّعْلُوكِ السُّلَيْكِ بنِ السُّلَكة:

سَمِعْتُ بِجَمْعِهِمْ فَرَضَخْتُ فِيهِمْ بِنُعْمانَ بنِ غَفْقانَ بنِ عَمْرِو

فَإِنْ تَكْفُرْ فإِنِّي لا أُبالي وإِنْ تَشْكُرْ فإِنِّي لَسْتُ أدري[٣٥]

---

(٣٢) حاتم الطّائيّ، ديوانُ شِعْرِه، بتحقيق عادل سليمان جمال، دار المَدَنيّ، القاهرة، ص٢١٢-٢١٣.

(٣٣) عمرو بن كُلثوم، ديوانُ شِعْرِه، بعناية علي أبو زيد، دار سعد الدّين، دمشق، ١٩٩١م، ص٥٢.

(٣٤) الهذليّون، ديوانُ أشعارهم، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٤٥م، ج٣ ص١١٣.

(٣٥) الشّعراء الصّعاليك، ديوان أشعارهم، بعناية طلال حرب، الدّار العالميّة، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٠.

ولا يَغيبُ عن البالِ هنا أنّ عامِلاً أَخْلاقِيًّا أساسُه «ما جَزاءُ الإحسانِ إلّا الإحسانُ» غدا الحاكِمَ في الشُّكْرِ البَشَريِّ في هذا العَصْر، ولم يَكُن ذلك في شُكْرِ الجوامِدِ والنّباتِ والحَيَوان. ولَسْنا نَنْسَى أيضاً أنّ «نُمُوَّ» معنَى الشُّكْرِ في هذا العَصْرِ خَضَعَ لِمَبدَأ «التّفاعُلِ الاجتماعيِّ الأخلاقيِّ»، وأنّ انبثاقَ عناصِرَ جديدةٍ في بِنْيَةِ مفهومِ الشُّكْرِ مَرْجِعُه الأوّلُ نُمُوُّ الوَعْيِ الأخلاقيّ، وأنّ ظُهورَ نَقيضِ الشُّكْرِ، وهو الكُفْرُ، كان مُحرِّضاً فاعِلاً في تفتيقِ عَناصِرَ دِلاليّةٍ كثيرةٍ جديدة في بِنْيةِ هذا المفهوم. ولا شَكّ أيضاً في أنّ تَطوّرَ الوَعْي الأخلاقيِّ باتّجاهِ وُضوحِ «الواجِبِ»، مِن العوامِلِ المؤثِّرةِ في الصُّورةِ النّهائيّةِ لِمفهومِ الشُّكْرِ. وتُساعِدُ الثّقافةُ الشِّعْريّةُ، بِما تُذيعُ مِن فُهومٍ جديدةٍ وأنظارٍ جديدةٍ، عَلَى تَسارُعِ حَرَكةِ إكْمالِ المفهوم.

وعَلَينا أن نَضَعَ في الحِسابِ أنّ الوَعْيَ العربيَّ الجاهِليَّ لِمَفْهومِ الشُّكْرِ هذا قد هَيَّأَ يَقيناً لِقَبُولِ إدراكٍ مُميَّزٍ بَعْدَ وقتٍ قَصِير لِما سَمّاهُ القرآنُ في المرحلةِ التّاليةِ: «لِسَانَ الصِّدْق في الآخِرينَ»[٣٦]، و«رَفْعَ الذِّكْر»[٣٧]. وعَلَينا أن نُذكِّرَ بِأنّ «مفهومَ الشُّكْرِ» هذا ينتظِرُ تَطوُّراً هائلاً في مَرْحَلةِ القرآنِ والحديث.

- **المنظورُ القُرآنيُّ والحَديثيُّ لمفْهومِ «الشُّكْر»:**

أحدَثَ القرآنُ الكريمُ انعطافةً هائلةً في القِيَمِ الأخلاقيّةِ عِنْدَ العرب، وكان لِمَفهومِ الشُّكْرِ نَصيبٌ واضِحٌ تماماً مِن ذلك. وقد زادَتِ المفرداتُ القرآنيّةُ المُتّصِلةُ بِالشُّكْرِ عَلَى السَّبعينَ، وأظهَرَ ذلك اهتماماً إلهيًّا عظيماً بِالشُّكْرِ، حتّى إنّ الله سُبْحانَه وَصَفَ ذاتَهُ العَلِيّةَ بِأنّهُ «شاكِرٌ»[٣٨]. والأساسُ

(٣٦) يُنظَر: سُورة الشُّعَراء، الآية ٨٤. والمُرادُ بِلِسانِ الصِّدْقِ: الذِّكْرُ الحَسَنُ، والثّناءُ الجميل.

(٣٧) يُنظَرُ: سُورة الشّرح، الآية ٤.

(٣٨) ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النّساء: ١٤٧].

العَقَديُّ لِهذه الانعطافةِ أنّ المُنْعِمَ الإلهيَّ الواحِدَ حَلَّ في ظِلِّ القرآنِ مَحَلَّ المُنْعِمِينَ الكثيرينَ في المرحلةِ السّابقة. وقد أكّدَ القُرآنُ منذُ وقتٍ مُبكِّرٍ أنّ جِنْسَ الحَمْدِ وحقيقتَه لله رَبِّ العالَمِينَ، لا لِغَيْرِه. ويكونُ الحَمْدُ باللِّسانِ وَحْدَه، وهو إِحْدَى شُعَبِ الشُّكْر، ومِن هذا قولُه عَلَيْهِ السّلامُ: «الحَمْدُ رأسُ الشُّكْرِ، ما شَكَرَ اللهَ عَبْدٌ لم يَحْمَدْهُ»(٣٩). وكُلُّ شُكْرٍ في القرآنِ مُنصَرِفٌ مِن الإنسانِ إلى الخالِقِ سُبْحانَه، أو مِن الخالِقِ سُبْحانَه إلى عِبادِه. ولا نَجدُ في القرآنِ ذِكْراً لِشُكْرِ الإنسانِ لِلْإنسانِ إلّا في النَّزْرِ اليَسيرِ(٤٠). ولِأنّ القرآنَ حَكَمَ بِأنّ اللهَ سُبْحانَه هو الغنيُّ، وأنّ النّاسَ هم الفقراءُ، كان لا غِنَى عن فَيْضِ الإنعامِ مِن الغَنِيِّ الأَوْحَدِ إلى الفقراء، ولا غِنَى عن فَيْضِ الشُّكْرِ مِن المُنْعَمِ عَلَيه عَلَى المُنعِم. ويَشيعُ في القرآنِ جَوُّ إظهارِ اللهِ سُبْحانَه نِعَمَه عَلَى الإنسانِ، وطَلَبِهِ شُكْرَ الإنسانِ لِتلكَ النِّعَم.

وفي القرآنِ رَبْطٌ واضِحٌ تَماماً بَيْنَ إنعامِ اللهِ سُبْحانَه عَلَى الإنسانِ وإرادَتِه تعالَى الشُّكْرَ مِنه. وتأخُذُ آياتٌ كثيرةٌ في القرآنِ صُورةَ نَمَطٍ مِن ثَلاثةِ عناصِر: ذِكْرُ نِعْمةِ الله، وتعبيرُ «لَعلَّ»، والشُّكْرُ. ونَكتفي هنا بِذِكْرِ قليلٍ مِن كثيرٍ، مِثْل:

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٢].

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ويَعْني ذلكَ تماماً أنّ إنعامَ الحَقِّ تعالَى عَلَى العَبْدِ يستوجِبُ الشُّكْرَ مِنه، فإنّ «لَعَلَّ طَمَعٌ وإشفاقٌ. وذكَرَ بعضُ المُفسِّرينَ أنّ «لَعَلَّ» مِن اللهِ واجِبٌ،

(٣٩) يُنظَرُ: الزّمخشريّ، الكشّاف، نَشْرةُ دار الكتاب العربيّ، بيروت، ج١ ص٩.

(٤٠) يُنظَرُ مَثَلاً قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩]، وقولُه سُبْحانَه: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وفُسِّرَ في كثيرٍ مِن المواضِعِ بِـ«كَيْ»، وقالُوا: إنّ الطّمَعَ والإِشْفاقَ لا يَصِحُّ عَلَى الله تعالَى»(٤١).

وغيرُ خافٍ أنّ الطَّلَبَ الإلهيَّ لِشُكْرِ العَبْدِ باللِّسانِ مُنبِئٌ عن إرادةٍ مِن المَوْلَى سُبْحانَه لِأَنْ يُعْرَفَ، وأن يُقَرَّ بِنَعْمائِهِ عَلَى عِبادِه. وفي القرآنِ تأكيدٌ لِجَزاءِ الله الشّاكرينَ(٤٢).

ويربِطُ القُرآنُ مفهومَ شُكْرِ اللهِ سُبْحانَه بِعِلْمه(٤٣). وفي صِيغةِ تأكيدٍ قويّ يُبيِّنُ أنّه تعالَى الأعْلَمُ بِالشّاكرينَ(٤٤). وبِذلكَ يكونُ قَلْبُ الإنسانِ مَحَطَّ نَظَرِ الحقِّ تعالَى في شَأنِ الشُّكْر، ويكونُ «الشُّكْرُ» مفهوماً أَخْلاقيًّا دِينيًّا. والله سُبْحانَه في خَلّةِ الشُّكْرِ هذه يُعامِلُ الإنسانَ بِالأخلاقِ الإلهيّةِ الكريمة، ولا بُدَّ مِن أنْ يُعامِلَ الإنسانُ رَبَّه بِمُقتضَى هذه الأخلاق. اللهُ سُبْحانَه شاكِرٌ وعَليمٌ بِمَن هو أَهْلٌ لِأن يَشكُرَه؛ وعَلَى المُؤمِن أن «يتخلّقَ بِأخلاقِ الرّحمن»، فيكونَ شاكِراً عَلِيماً تماماً استحقاقَ رَبِّهِ أن يَشكُرَه. «الشُّكْرُ في صُورَتِه الكاملةِ ليس أُحاديَّ الجانب في القرآن؛ إنّه تَبادُليٌّ. فإذا كانَ واجبُ شُكْرِ نِعَمِ اللهِ يَؤُولُ إلى الإنسانِ، فإنّ اللهَ، مِن جانبِهِ، يُتوقَّعُ مِنه أن يَستجيبَ لِفِعْلِ الشُّكْرِ هذا بالشُّكْرِ. ومِثْلُ هذا العطاءِ والأَخْذِ المُتبادَلِ لِلشُّكْرِ هي الصّورةُ المِثاليّةُ لِلْعلاقةِ بينَ اللهِ والإنسان»(٤٥).

---

(٤١) مفردات ألفاظ القرآن، سابق، ص٧٤١.

(٤٢) كما في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

(٤٣) كما في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النّساء: ١٤٧].

(٤٤) انظر سورة الأنعام: ٥٣.

(٤٥) Ethico-Religious Concepts in the Qur'an, p. 202. – والتّرجمة العربيّة لِهذا الكتاب، ص٣٣٠.

ويَرْبِطُ القرآنُ بَيْنَ الشُّكْرِ والهداية الإلهيّة(٤٦)؛ فشاكِرُ اللهِ سُبْحانَه مُهْتَدٍ إلى سَواءِ السَّبيل، ومَن لا يَشْكُرُ اللهَ ضالٌّ مُضيعٌ لِما خُلِقَ مِن أَجْلِه.

ويُوضِحُ القرآنُ أنّ شُكْرَ الإنسانِ للهِ فائدتُه له هو نَفْسِه:

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النّمل: ٤٠].

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وأكثَرُ مِن ذلكَ، يجعَلُ الخالِقُ العظيمُ الشُّكْرَ مُبْطِلاً لِعَذابِ الله:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النّساء: ١٤٧].

وشُكْرُ نِعَمِ الله يُضاعِفُ إفضالَ اللهِ سُبْحانَه عَلَى الشّاكِرِ، وفي هذا المعنَى جاء التّأكيدُ القويُّ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ويعني هذا تطوّراً كبيراً في مفهومِ «الشُّكْرِ» عَمّا كان عَلَيهِ في المرحلةِ الجاهليّة. فقد كانَ العربيُّ الجاهليُّ يَرَى مُنْعِمينَ كثيرينَ، ويَلحَظُ تَنَوُّعاً وتَعدُّداً في مَصْدَرِ الإنعامِ الذي يستلزمُ الشُّكْرَ؛ وكانَ العربيُّ الجاهليُّ عَلَى أنّ عَدَمَ الشُّكْرِ، أو الكُفْرَ، لا يترتّبُ عَلَيْهِ الشَّيءُ الكثير. أمّا في ظِلِّ القرآن، فالمُنْعِمُ واحِدٌ، وهو يُعدِّدُ مَظاهِرَ إنعامِهِ عَلَى خَلْقِهِ، ولا يَنِي يُذكِّرُ بِها مظهَراً مَظْهَراً. والمُنْعِمُ العَرَبيُّ القديمُ لا يَعْلَمُ مَن يَشْكُرُه عَلَى الحقيقةِ، أمّا المُنْعِمُ الإلهيُّ في القُرآنِ فهو أَعْلَمُ بِالشّاكرينَ الحقيقيّينَ. إضافةً إلى أنّ المُنْعِمَ الإلهيَّ يجعَلُ فَضْلَ الشُّكْرِ لِلشّاكِرِ نفسِه، وليس له هو سُبْحانَه. وكذا المُنْعِمُ القُرآنيُّ يَجْعَلُ «الشُّكْرَ» سَبيلَ الحياةِ الآمنةِ المُطْمئنّةِ التي لا عذابَ مَعَها، الحياةِ التي يَزيدُ فيها إنعامَه لِلشّاكِرِ.

(٤٦) ينظر: سور النّحل: ١٢١، الإنسان: ٣، البقرة: ١٨٥.

وثَمّةَ رَبْطٌ لا تُخطِئُه العَيْنُ في القرآن بَيْنَ إدراكِ الآياتِ الإلهيّةِ وصَبْرِ الإنسانِ وشُكْرِه[٤٧]. ويُفْهَمُ مِن ذلكَ أَمْرٌ عظيمٌ اجتهَدَ الزَّمخشريُّ (ت ٥٣٨هـ) في بَيانِهِ حِينَ عَلّقَ عَلَى قولِهِ سُبْحانَه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]، فقالَ: «﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ يَصْبِرُ عَلَى بَلاءِ اللهِ، ويَشْكُرُ نَعْماءَهُ؛ فإذا سَمِعَ بما أنزلَ اللهُ مِن البَلاءِ عَلَى الأُمَمِ، أو أفاضَ عَلَيْهم مِن النِّعَم، تنبّهَ عَلَى ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِن الصَّبْرِ والشُّكْرِ واعتبرَ. وقِيلَ: أرادَ لِكُلِّ مؤمِنٍ؛ لِأنّ الشُّكْرَ والصَّبْرَ مِن سَجاياهم، تَنْبيهاً عَلَيهم»[٤٨].

ويُحصَّلُ مِن هذا أنّ «شُكْرَ» العَبْدِ اللهَ مظهَرٌ مِن مظاهِرِ الإيمان. وهو أيضاً مظهَرٌ لِعِلْمٍ وخُبْرٍ يُدرِكُ بِهِما المؤمِنُ أنّ العَبْدَ بينَ مَنْعٍ وعَطاءٍ، يترتّبُ عَلَيْهما صَبْرٌ عَلَى المَنْعِ وشُكْرٌ عَلَى العطاء. وثمّةَ حساسِيّةٌ إيمانيّةٌ في تَحْدِيدِ المُنْعِمِ الحَقِّ، الذي يَسْتحِقُّ «الشُّكْرَ». ومُؤتي هذه الحسَاسيّةِ الحِكْميّةِ هو الحَقُّ وَحْدَه، وهي عَيْنُ شُكْرِ الله. ومِن هذه الوِجْهةِ جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ ﴾ [لقمان: ١٢].

وفي بِنْيةِ المفهومِ القُرآنيِّ لِـ«الشُّكْرِ» أَنَّهُ عَلامةٌ عَلَى صَلاحِ الإنسانِ وتُقاتِه حِينَ يَصِلُ إِلَيهِ الفَضْلُ الإلهيُّ فيَشْكُرُ أو يكفُر[٤٩]. وعِنْدَ هذه النّقطة يدنو الشُّكْرُ مِن الإيمان؛ ذلك أنّ كُلًّا مِنهما يُقابِلُ «الكُفْرَ»، بل يُمكنُ القولُ إنّ الشُّكْرَ في الإسلامِ هو اسمٌ آخَرُ لِـ«الإيمان»[٥٠]. والشُّكْرُ كاشِفٌ لِلْإيمانِ الحَقِّ، وهو ضَرْبٌ مِن الإيمانِ العَمَليّ. ومِثْلَما حَكَمَ القُرآنُ بِأَنَّ ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

(٤٧) يُنظرُ: سور إبراهيم: ٢٥، لقمان: ٣١، سَبَأ: ١٩، الشّورى: ٣٣.

(٤٨) الكشّاف، سابق، ٢ ص٥٤٠.

(٤٩) يُنظَرُ قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ﴾ [النّمل: ٤٠].

(٥٠) يُنظَرُ: Ethico-Religious Concepts in the Qur'an, p. 200. والتّرجمة العربيّة، ص٣٢٨.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرّعد: ١]، حَكَمَ بِأنّ ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

ويُفْهَمُ مِن القرآنِ أنّ الكُفّارَ لا يشكرونَ اللهَ في الرَّخاءِ والسَّعةِ، ويُحدِّثُنا عن أنّ شُكْرَهم اللهَ سُبْحانَه مشروطٌ بِفَضْلٍ إلهيٍّ يُسْدَى إِلَيهم، أو إنجاءٍ مِن بَلاءٍ حاقَ بهم(٥١).

والشُّكْرُ في القرآنِ خُلُقٌ إلهيٌّ، وخُلُقٌ نَبَويٌّ وَصَفَ بِه المولَى سُبْحانَه نوحاً عَلَيه السّلامُ، الذي كان عندَه عَبْداً شَكُوراً(٥٢)، مِثْلَما كان آلُ داوودَ عَلَيْهِ السّلامُ(٥٣). أمّا جُمْلةُ عِبادِ اللهِ فقلِيلٌ مِنْهم الشَّكُور(٥٤).

ويُلْحَظُ في القُرآنِ مُتابَعةٌ لِلاستعمالِ اللُّغَويِّ العربيِّ في الجاهليّة، في مُقابَلةِ «الشُّكْرِ» لِـ «الكُفْرِ». وقد تنبّهَ بعضُ المُحْدَثينَ إلى ذلكَ ففسَّرَ «الكُفْرَ» عَلَى نحوٍ دقيقٍ بِمعنَى «الافتقارِ إلى الشُّكْرِ»(٥٥).

ومِن كُلِّ ما تقدَّمَ في شأنِ مفهومِ «الشُّكْرِ» في القرآن، يُفْهَمُ أنّ الشُّكْرَ الذي بَدَأ في جاهليّةِ العَرَبِ أثَراً إيجابيًّا يَبْدُو في الشَّيْءِ المُتأثِّرِ، ثمّ صارَ رِضاً بِاليَسير، ثُمّ باتَ ثَناءً بِاللِّسانِ عَلَى الإنسانِ لِمَعْروفٍ يُولِيه، [هذا الشُّكْرُ] آلَ في تعاليمِ القرآنِ إلى أن يكونَ مِن الإنسانِ إلى الله وَحْدَه سُبْحانَه، ومِن اللهِ إلى الإنسانِ الشّاكِرِ، في حَرَكةٍ مُتواصِلَةٍ، يَزيدُ فِيها إنعامُ اللهِ عَلَى الشّاكرينَ، ويُحيطُ اللهُ فِيها عِلْماً بِشُكْرِ الشّاكِرِ، الذي يُذكِّرهُ بِنِعَمِه عَلَيْهِ، ويسألُهُ أن يشكُرَه عَلَيْها. فالشُّكْرُ في القرآنِ ثَناءٌ عَلَى المُنْعِمِ الأَوْحَدِ الحَقِّ. وهو تعبيرٌ عن إيمانٍ مَبْنيٍّ عَلَى معرفةٍ يَتفاوتُ المؤمنونَ في دَرجاتِها،

(٥١) يُنظَر: سور الأنعام: ٦٣، الأعراف: ١٨٩، يونس: ٢٢.

(٥٢) يُنظَر: سورة الإسراء: ٣.

(٥٣) انظر: سورة سَبَأ: ١٣.

(٥٤) نفسه.

(٥٥) المفهومات الأخلاقيّة، سابق، ص٣٢٨.

في مِضْمارٍ مُمتدٍّ لا غايةَ لـه. وكـانَ ذلـكَ كُلُّـه أساسـاً لِتطـوّرٍ هائـلٍ يَشـهَدُه المفهومُ في المرحلةِ اللّاحقـة، حِـينَ جـاءَ إلـى الـدُّنيا مُؤمنـونَ يَسْـعَونَ إلـى التّحقُّقِ التّامِّ بِمَرْضاةِ الله، حالُهُم في ذلكَ حالُ الأنبياءِ والمُرْسلين.

ولِأنّ الحديثَ النَّبَويَّ المَصْدَرُ الثّاني لِلتّشريعِ في الإسلامِ بَعْـدَ القـرآن، يستدعي إتمامُ ما عَلَيْهِ المَنْظورُ الذي نحنُ إزاءَه تقديمَ عَرْضٍ سـريعٍ لسُـلُوكِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ في هذا الشّأن. وكُنّا قد أَشَرْنا قَبْـلُ إلـى أنّ الشُّكْرَ خُلُقٌ نَبَوِيٌّ وإلى ذِكْرِ القـرآنِ نُوحـاً وآلَ داوودَ مُتحَلِّـينَ بِهـذا الخُلُـق. وتُقدِّمُ الآثارُ النَّبَويّةُ صُورةً مُتقدِّمةً جِدًّا في مَجال الشُّكْرِ؛ فقد أُثِـرَ عـن النّبـيِّ مُحَمَّـدٍ عَلَيْـهِ الصّـلاةُ والسّـلامُ أنّـه قـالَ: «الطّـاعِمُ الشّـاكِرُ بِمَنْزِلـةِ الصّـائمِ الصّابِر»(٥٦). والطّاعِمُ في اللّغةِ هو الآكِلُ. ومُرادُ الحديثِ أنّ الآكِـلَ الشّـاكِرَ لِنِعَمِ الله عَلَيْهِ في إمدادِه بِالطّعام، وفي إِقْدارِه عَلَى تَناوُلِهِ والانتفاعِ به، بِمَنْزِلـةِ الصّـائمِ الصّـابِرِ عَلَـى لَأواءِ الجُـوعِ والظَّمَـأ. ولا شَـكَّ البتّـةَ فـي عُلُـوِّ هـذه المَنْزِلةِ، اعتماداً عَلَى المَرْويِّ مِن قَوْلِ النّبيّ ﷺ عن ربّه: «.. إلّا الصّيامَ فإنَّـهُ لي وأنا أَجْزي به»(٥٧). ويعنـي هـذا الحـديثُ الأَوّلُ أيضـاً إرادةً نَبَويّـةً رَبّانيّـةً لِدَوامِ الشُّكْرِ مِن الإنسانِ واستمرارِه مَعَ استمرارِ تَناولِ الطّعام. والشُّـكْرُ هنـا عِلْمٌ يقينيٌّ بِالمُنْعِمِ الأَوْحَدِ سُبْحانَه وبِصِفاتِه العَظيمة.

وفي السُّلُوكِ النَّبَويِّ إضافةٌ في دِلالةِ الشُّكْرِ وتوسِيعٌ لِلْمَفهوم، إذ يَغْـدُو الشُّكْرُ عِبادةً مُقتَرِنةً بِالإخلاصِ التّامِّ للهِ سُـبْحانَه مُعبَّـراً عنـه بِالبُكـاءِ وسَـكْبِ العَبَرات. فقد رُوِيَ عن عَطاءٍ أنّه قالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عائشـةَ رَضِـيَ اللهُ عَنهـا،

(٥٦) الغزالي: إحياء علوم الدّين، نَشْرة دار الفكر، بيروت، ج٤ ص٨١.

(٥٧) البخاريّ، صَحيحُه بِشَرْح الكرمانيّ، المطبعة البهيّـة، القـاهرة، ١٩٣٩م، كتـاب الصّـوم، ج٩، ص٨٧.

فقُلْتُ: أَخْبِرينا بِأعجَبِ ما رأيتِ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ، فبَكَتْ وقالَتْ: وأيُّ شأنِهِ لم يَكُنْ عَجَباً؟! أَتاني لَيْلَةً، فدَخَلَ مَعي في فِراشي - أو قالَتْ: في لِحافي - حتّى مَسَّ جِلْدِي جِلْدَه. ثمّ قالَ: «يا ابْنَةَ أبي بَكْرٍ، ذَرِيني أَتَعبَّدْ رَبِّي»، فقالَتْ: قُلْتُ إنّي أُحِبُّ قُرْبَكَ، لكنِّي أُوثِرُ هَواكَ، فأَذِنْتُ له. فقامَ إلى قِرْبةِ ماءٍ، فتَوَضّأَ، فلم يُكثِرْ صَبَّ الماء. ثمّ قامَ يُصَلِّي فبكى حتّى سالَتْ دُموعُه عَلَى صَدْرِهِ، ثمّ رَكَعَ فبكَى، ثمّ سَجَدَ فبكى، ثمّ رَفَعَ رأسَه فبكى، فلم يَزَلْ كذلكَ يبكي حتّى جاءَ بِلالٌ فآذَنَهُ بِالصَّلاة. فقُلْتُ: يا رَسُولَ الله، ما يُبكيكَ وقد غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تقدّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تأخّرَ؟- قالَ: «أَفَلا أَكونُ عبداً شَكُوراً، ولِمَ لا أفعَلُ ذلكَ وقد أنزلَ اللهُ تعالَى عَلَيَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية»[٥٨]. وقد عَلّقَ الغزاليُّ عَلَى بُكاءِ الشُّكْرِ هذا في الحديثِ بِقَوْلِه: «وهذا يَدُلُّ عَلَى أنّ البُكاءَ ينبغي ألّا يَنقطعَ أبَداً»[٥٩].

وعَلَى هذا النَّحْوِ يَنْضافُ إلى شُكْرِ اللِّسانِ في هذه المَرْحلةِ شُكْرُ الجَنانِ الذي يَقْوَى فيتظهَّرُ بُكاءً يستمرُّ لبَعْضِ الوقت. والشُّكْرُ حتّى البُكاءِ وذَرْفِ الدَّمْعِ مَظْهَرٌ مُستَعْلِنٌ لِلْإيمانِ واستِشْعارِ العَظَمةِ الإلهيّةِ وامتِلاءِ القَلْبِ بِالعُبُوديّة، حتّى قالَ ابنُ مَسْعود: «الشُّكْرُ نِصْفُ الإيمان»[٦٠].

ونَحْسَبُ أنّ هذه الدّرجةَ الفائقةَ مِن الشُّكْرِ خاصّيّةٌ لِأرْواحٍ عَرَفَتْ نفسَها وعَرَفَتْ رَبَّها، وعَرَفَتِ السَّبيلَ، فاختارَتْ سَبيلَ الشُّكْرِ ومَضَتْ فيه إلى النِّهايةِ، وازورَّتْ عن طَريقِ الكُفر. وهذا ما سيُفيضُ في الحديثِ عنه المنظورُ الثّالث، إن شاء الله.

---

(٥٨) إحياء علوم الدّين، سابق، ج٤ ص٨١.

(٥٩) نفسُه.

(٦٠) نفسُه.